تعدد المعاني اللغوية لألفاظ القرآن الكريم وأثرها في اختلاف تفسيره

د. محمد مشري
جامعة الإخوة منتوري ـ قسنطينة

الملخص:

أعلى درجات التفسير تلك التي تعتمد القرآن نفسه؛ أي تفسير القرآن بالقرآن وتليها في المرتبة تفسيره بالسنة النبوية الشريفة وتأتي بعدهما جهود الصحابة والتابعين لهم ثم يستثمر أجيال العلماء كل ذلك في العصور اللاحقة لاستحداث تفسير جديد ناهيك عن تفاسير الطوائف غير السنية التي تصطنع تفاسير تنسجم مع توجهاتها ومذاهبها، غير أنّ الملاحظ هو تعدد التفاسير السنيّة نفسها؛ حيث يطالعنا كلّ قرن بجملة من التفاسير التي تتخذ من المأثور والمنقول أصلا لاجتهادها، فلماذا اختلفت تلك التفاسير وتكاثر عددها وتنوع مضمونها بطبيعة الأفكار المجدّدة لمنهج أصحابها في التجاوب مع النوازل ومقتضيات العصر؟.

إن قراءة قوله تعالى: (مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ) ـ الأنعام 38 ـ تجعل من العقل متحفزا لإعادة استقراء النص الشريف قصد استنباط بعض أحكامه واستخراج مكنوناته بأدوات لا تشذّ عن المجمع عليه في عرف المجتهدين الأثبات، لكن كيف يمكن تجاوز التقليد في تفسير القرآن وأكثر ما فيه توقيفي؟ هذه الظاهرة هي التي أكدت إعجازه مرة أخرى فهو النص الذي تنفتح مغالقه لكل من امتلك ذهنا وقّادا وفكرا ثاقبا لا يستسلم معهما لكل ما قاله العلماء قبله وأهم شيء يساعد على ذلك بعد توافر شروط المفسر المعروفة مطاوعية اللغة العربية لأساليب المجتهد في التفسير؛ أي أنّ اللغة تنقاد له فيحسن التعبير بألفاظها عمّا ينشده من التوضيح والتبيان، أو أنّ المعاني تتكشف له عن سترها فيدرك ما تعذر عن غيره إدراكه من مستويات الدلالة المستبطنة، وهنا تتفاوت العقول بقدراتها ومواهبها الربانيّة.

فتتبع مظاهر الإعجاز في المتشابه اللفظي وحده يحيل على ثراء ما بعده ثراء ميزته في كل ذلك حصيلة اللغة العربية بتنوع أساليبها وغزارة معاني ألفاظها، التي وجدت لها مساقطا في شعر العرب ونثرها بوصفهما مجمع الدّيوان الذي أوصى الصحابة الكرام

بالرجوع إليه واتخاذه ملجأً كلّما استعصت الأفهام عن استقصاء مدلول لفظ غائر في الغموض؛ لأن لغة العرب "لا يحيط بها إلا نبي"، فكلّ العقول كليلة عن بلوغ منتهى الغاية في فهم معاني القرآن، ويعنينا في هذا الموضع إدراك سر إعجاز القرآن في تعدد معاني ألفاظه وأشكال بُنَى متشابه مفرداته من حيث المشترك والمترادف وأثر المعجم العربي بقوائم ألفاظه ومعانيه في الكشف عن فحوى الدلالات المتباينة للّفظ الواحد.

الكلمات المفتاحية: المتشابه اللفظي – المشكل في القرآن – المعنى المعجمي – المعنى القرآني – تعدد المعنى.

نص الإشكالية:

إذا كان المعجم العربي مستوحى من ديوان العرب الشعري، فهل يمكن أن يسهم في تجديد تفسير القرآن الكريم

وكيف نستثمر تعدد المعاني اللّغوية لألفاظ القرآن في الكشف عن معاني جديدة في نصوصه؟ وهل فعلا أدّى التعدد اللغوي لمعاني ألفاظ القرآن لاختلاف تفسيره قديما وحديثا؟ ما هي الإمكانات التي تتيحها اللّغة للتجديد في التفسير بوصفها الأداة المتطورة والمتغيرة؟.

أهداف الدراسة:

إعادة قراءة ما أُلف حول مشكل القرآن ومتشابه لفظه قصد تحديد مظاهر الاجتهاد فيها والاستفادة منها للتجديد في البحث عن معاني مغايرة تزيل الإبهام عن ما تمّ الاختلاف حوله؟

إعداد معجم لمعاني ألفاظ القرآن مستخرجة من المعجم العربي أي تتبع مساقط معاني ألفاظ القرآن في الشعر العربي القديم ولا شك أن أوجه القراءات القرآنية لها كبير الدور في اتساع هذه الدائرة.

حصر المعاني اللّغوية التي أدّت إلى اختلاف المفسرين؛ أي كيف اتخذ المفسرون اللغة مطية للتجديد في التفسير. تحديد مظاهر تعالق النص الشريف بلغة العرب حيث حواها واتضح بمعناها الذي تشربت ألفاظه مغزاها.

عناصر المقال:

مقدمة إجرائية

أولا: التباين بين المعاني المعجمية للغة العرب ومعاني ألفاظ لغة القرآن

ثانيا : معجم ألفاظ القرآن في الشعر الجاهلي

ثالثا: المعاني اللغوية المختلف فيها عند المفسرين

Abstract:

The highest levels of interpretation are those relying on Quran itself; namely the interpretation of the Holy Quran by Quran, followed by interpretation by the Sunna of the Prophet Muhammad then come the efforts of Sahaba and their followers. After that, the Generations of scholars in later ages invest it all to develop a new interpretation, not to mention the interpretations of non-Sunni sects that synthesize a new interpretation consistent with their orientations and doctrines, but what is obvious is the multiplicity of Sunni interpretations. As each century brings us a number of interpretations that make the maxim and the transferred as an origin to jurisprudence, so why are there different and multiple interpretations with various content according to the nature of their holders methodology renewable to cope with calamity and the requirements of the era.

Reading the verse '' We have not neglected anything in the Book'' Al Anaam 38, makes the mind motivated to re-extrapolate This Holly text in order to develop some of its provisions and extract its mastery by means of tools that do not deviate from what is known mujtahids. However, how to overcome the imitation in Quran interpretation when most of its content is "Tawkifi"? This phenomenon is what confirms its Miracle "E'jaz" one more time; it is a text that is more comprehensible to those who have an active mind and an insightful thinking with which they do not just give-up to what the scholars before them said. What helps in this the most, after the known interpreter qualities is the compatibility and

the flexibility of Arabic language with the “Mujtahid” methods in interpretation; in other expression, the language is totally under his control so he can use its words well enough to express what he wants to clarify and indicate. Alternatively, the meanings reveal themselves to him allowing him to reach other levels of derived signification never realized by those who preceded him, At this point; brains vary in their abilities and talents given by god.

Tracking the miracle ”E’jaz” phenomena of similar words alone can lead to a great richness with the advantage of Arabic language outcome with its various styles and copious words meanings that found their places in Arabs poetry and prose, as they are the Diwan recommended by Sahaba to which we reach out whenever the meanings are too ambiguous because the language of Arabs “is well known only by a prophet” since all minds are unable to perfectly understand the Quoran’s meanings. At this level, we are concerned by realizing the secret of the Quran miracle “E’jaz” in the multiplicity of its words meanings and the structures of its similar ones In terms of common words and synonyms and the effect of the Arabic dictionary with its list of words and meanings in revealing the tenor of differentiated connotations of one term.

مقدّمة:

أثار المستشرقون إشكالية الإبهام الذي يوشّح نصوص القرآن الكريم، فلو كان منزّلا لهداية النّاس إلى الصراط المستقيم لما استعصى عليهم فهمه وإدراك مراميه، فهم إذا أرادوا فهمه عند قراءته للأخذ بما ورد فيه من تعاليم احتاجوا في ذلك إلى وسائط كثيرا ما تتباين وقلّما تتفق في تجلية معنى تتعلق به أحكام عبادات هي من أصول الدّين، فالعرب مثلا في فجر الإسلام وهم أهل بلاغة وأرباب بيان تعذر عليهم فهم معاني القرآن إلا النزر اليسير منها، فالصرفة مرتبطة بمحاكاة نظمه لا حجب المقاصد من المعاني والدّلالات المعينة على إدراك فحوى الخطاب، ولا يمكن للعقول أن تختلف في قراءته واستقرائه لكونه لم يوجه لفئة منهم بعينها كأن تكون فئة العلماء في كل عصر.

فهذا الزعم وإن رُميت به جميع الرّسالات السماوية ناهيك عن القرآن الكريم فهو سبيل للطعن في أصول الديانة في كل شريعة سماوية، لأنه ما من رسالة إلا واحتاجت لمن يوضح مغزاها إما بوساطة النبي صاحب الدّيانة أو عن طريق أتباعه الأوائل الذين عاصروه ورووا عنه مشافهة ونقلوا عنه سننا بالمعاينة، ثم يأتي بعدهم العلماء الذين يجتهدون في صحة إثبات ما تعلّق بعلمي الرّواية الدّراية في أي رسالة سماوية، فعقول عامة الناس عاجزة بديهة عن تتبع كل ذلك لاختلاف مدارك التفكير لديها من جهة وكذا تباين غاياتها في الحياة؛ لهذا كان الناس في أي زمن وأي أمة طبقات ومستويات في كل شيء، وتفسير ذلك عدم تماثلهم جملة في الجهل بحقيقة الأشياء أو العلم بها مهما كان جنس الشيء ونوعه.

فتفاوت آي الذكر الحكيم في الإبهام والغموض مرجعه أساسا لكونها لم تخاطب فئة بعينها في زمن مخصوص بل إن القرآن منزل على الثقلين كليهما في كل عصر يأخذ منه كل جيل ما يتناسب مع زمنه، فلا يخاطب القدماء بما هو حادث مستقبلا فتنكره عقولهُم وتستهجنه نفوسُهم كمن يعيش في زمن غير زمانه، حتى إنّ المعاصرين لا يمكنهم فهم كل حيثيات الماضي الذي لم يتسن لهم معاينة ملابساته، ولعل مسائل الفقه خير دليل على ذلك بوصفها واقعا ملموسا في حياة الناس يلاحظون أوجه الاختلاف فيها من عصر إلى آخر، فمغالق الآيات تنفتح تدريجيا بحسب قوة استيعاب العقول عند كل جيل ويستفيد

اللاحق من جهود السابق في الفهم فيضيف عليها ويستنبط ما تعذر استنباطه قديما، وما استطاع القدماء فهمه وبقي صالحا تنهل من فائدته أجيال هذا العصر، فهو إمّا أصل ثابت لا اختلاف فيه بين القديم والحديث أو هو من قبيل الاجتهاد السابق لأوانه والمتقدم عن زمانه.

اختلاف التفاسير في المذهب الواحد وتنوّع مناهجها ليس مطعنا في ماهية القرآن في حد ذاته، وإنما هي سمة من سمات إعجازه؛ حيث لم ينغلق دون المجتهدين في كل عصر إذا امتلكوا أدوات السبر والاستنطاق التي تؤهل العقل لفهم المعاني الغائرة والتي كانت بعيدة المنال في زمن ما؛ لأنه يستحيل الحَجْر على العقل إذا أراد أن يستقرئ غوامض النصوص ويسبر أغوار مغالقها؛ لأن الظاهر أو المنطوق عادة ما لا يشبعان نهمه ولا يحفزانه على إعمال مداركه وقدراته، لهذا لاذ العقل بالتأويل ليتسلل من خلاله إلى مكامن الألفاظ ويستشف ظلال معانيها المستترة ويستنبط أحكام المقاصد التي حوتها النصوص بالتأويل لذي يحيل إلى ما من شأنه أن يوسع دائرة التفكير ويفتح أبواب الاجتهاد إذا توافرت شروطه المتعاقد عليها بين العلماء المبرَّزِين لأن التأويل بحر لا ساحل له نظرا لتميّعه عند من يريد الإيغال في الاستعانة به.

تباين المفسرين مرجعه أساسا إلى أسباب متعددة ومختلفة يأتي في مقدمتها التباين في إدراك دلالة الألفاظ وما تحيل عليه من فحوى خطاب متجلبب بالمتشابه منها خاصة، ففي مثل هذه المواضع وهي ليست بالقليلة في آي الذكر الحكيم تتراجع العقول كليلة وترتدّ الرؤى حسيرة منتهى غايتها منفذٌ على شاطئ المعاني اللغوية يلجؤها إلى بَر مفهوم يكون له وقع قبول حسن عند من يترصدون عثرات عقول المجتهدين، فالمفسر لا يمكنه أن يبلغ شأوا في علمه هذا ويعد من العلماء المجتهدين إذا اجترّ أفكار غيره واقتات على شوائب الآراء، فلا اجتهاد في محلّ النّص المنقول بتفسير القرآن نفسه أو السنّة النبوية أو ما أجمع عليه الصحابة الأثبات، أمّا ما عدا ذلك فهو متروك لعلماء الأمة يجتهدون في فهمه دون شذوذ.

مدار التجديد في التفسير لا يمكنه أن يحيد عن مجالات اللّغة بمختلف مستوياتها لا سيما الدلالية منها بداية بالمعنى المعجمي الذي يتعدد في لغة العرب ولا ينضبط إلا بسياق يوجه مساره ويقيد شوارده، وهذا النوع من المعاني له عدة أنماط يتوزع بها لتحديد ما يعرف بالعلاقات الدلالية كالمشترك والمترادف والتضاد، فلئن كانت هذه الظواهر الدلالية تنشأ منعزلة عن السياق إلا أنها تسهم بشكل كبير في حصر المعنى ومعاينة مساقطه في النّص وتتبع امتداداته التي تتسع كلما تزايدت نسبة إيحاءاته المحتملة لعدة أوجه يمكن التباين في تفسيرها لعدم وجود خيط رفيع للترجيح، مما يفضي إلى التفاوت في الاجتهاد من جهة وغياب التوافق في تقارب الفهم من جهة أخرى فالمعجم اللّغوي يمد المفسر بعدد لا متناهي من المعاني التي من شأنها أن تشرح مستغلقا من الآيات وتجعل مدلولها واضحا يستسيغها الذهن.

وما يؤكد حاجة المفسرين إلى اللغة لجوءهم لفكرة الأشباه والنظائر التي وجدوا فيها المتنفس لابتداع معاني جديدة يضيفها كل مؤلّف في هذا الفن زيادة على ما أقرّه السابقون الأوّلون في كل قرن، فنظرية الوجوه والنظائر أو صنوها في المصطلح أي الأشباه قد حازت جلّ اهتمام المفسرين؛ حيث تباينوا في توضيح الدّلالة الاصطلاحية ثم اختلفوا في تحديد المعنى المعجمي للمفردة القرآنية، مما أدّى إلى تعدد التفسير الدلالي لتلك المفردة إذا ما تتبعوا نظائرها في السياق ضمن آيات الذكر الحكيم، فهناك من اتسع في الوجوه وضيّق في النظائر وهناك من سلك عكس هذا السبيل في استخراج الألفاظ ومكامن معانيها، فاللغة بمختلف مباحثها وسّعت من دائرة الاجتهاد في التفسير؛ حيث ظهرت مؤلفات في معاني القرآن وأخرى في إعجازه كما ألّف القدماء معاجم في غريب القرآن وكتبا في الأشباه والنظائر ومشكل القرآن، وكلها تعتمد المادّة اللغوية في الشرح والتفسير والتأويل.

لقد تم تخصيص موضوع هذا المقال للإجابة عن إشكال واحد هو كيف يمكن استثمار تعدد المعاني المعجمية للمفردة القرآنية في تجديد التفسير لاسيما اللغوي منه، وهل يمكن للشعر الجاهلي بوصفه ديوان العرب ولسان منطقهم أن يسهم في تخريج الدلالات المستغلقة في المعجم القرآني الذي حوى كمًّا ليس باليسير من ألفاظ تلك المدونة الشعرية؟

أولا: التباين بين المعاني المعجمية للغة العرب ومعاني ألفاظ لغة القرآن

عربية القرآن حقيقة لا مرية فيها لكونه اشتمل على ما لم تستهجنه العرب في أوج فصاحتها من ألفاظ متينة ومعاني رصينة وأساليب رفيعة جعلت أكثر من شاهِدٍ ينطق بلسانهم يؤكد تنزّه القرآن عن المطاعن في سماقة بلاغته وتميّزه المفرط في نظمه الذي سحر ألباب أقحاحهم ولم يتوانوا في تحديه والمعاضلة في الإتيان بمثله، لأن لا يستيقنوا بأنه ليس من جنس لغتهم لكنهم عبثا حاولوا، وما تطاولهم ذلك عن جهل بمهية القرآن اللّغوية بل هو العناد وعدم الرضوخ والاستسلام الذي يعني تقهقر لغتهم التي تبجحوا بفصاحتها أمدا طويلا إلى المنزلة الثانية في أوّل المعتقد، لأن لغة الحديث قد أخذت مكانتها بينهما فيما بعد، فهذا السجال والمماراة قد استمرت ردحا من الزمن إلى أن ظهر من ينافح عن القرآن ويذب عنه بتبيان أوجه إعجازه اللغوي والبلاغي بمؤلفات تعدّدت كمّا وتنوعت مضمونا لكل حجته التي تبز حجة غيره ممن سبقوه في مضمار المدافعين عن حياض القرآن فاليراعُ عندهم أبقى أثرا في التأثير من اللّسان، وما حواه القرآن نفسه من وسائل توضح بجلاء علو كعبه في الفصاحة والبلاغة.

لكن ما الذي استنفر العقل العربي وأثار حميتهم التي استنهضوا بها هِمَم أربابهم في البيان لمناهضة القرآن ومناشزته؟ هل هي البراعة في اصطفاء ألفاظه المرصوفة والملتحمة بعناية؟ أو هو سحر النظم في الأساليب، أو هي المعاني التي استوعبوا مراميها ومقاصدها؟ وفي أطراف أسنة هذا الإشكال تستوقفنا مسألة مهمّة تناثرت شظايا مضمونها في كتب المتقدمين والمتأخرين لا لاستعصائها عن الحلّ والفهم وإنما لتنازع الجدال في حقيقة تجسيدها المتمثل في مدى قدرة العرب الأوائل الذين زامنوا نزول الوحي على فهم معاني آي الذكر الحكيم وهي تترى تبين لهم أحكام الشريعة الجديدة، هذه القدرة على الفهم هل طالت كلّما ورد في القرآن الكريم أم أنها اقتصرت على معاني محدودة ومخصوصة؟ وأيّ دلالة جرحت كبرياء عتاة العرب لكي ينصرفوا عن النطق بالشهادتين ويقرّوا بالتوحيد في عبارة "لا إله إلا الله "إذا لم يكونوا فعلا قد أدركوا منتهى الغاية في استيعاب مدلول هذا التركيب.

إن نزول القرآن بلسان عربي مبين يقتضي عدم الجهل بمقصوده لاسيما عند أولئك الذين تماثل لسانهم بلسانه في الملفوظ من المفردات والعبارات، لكونهم أنكروا في مطلع البعثة معان من بعض الآيات اختلفت عن ما يعتقدونه كما أنهم ـ أي العرب الفصحاء الأوائل ـ قد انفعلوا مع آيات أخرى ووقفوا مشدوهين لما سمعوا جرسها واستوعبوا دلالة تنبئ عن الوعد والوعيد، فلو لم يكن الذكر الحكيم موافقا لسمت لغتهم لما انسجموا معه وعارضوه فيما لا يوائم شريعتهم التي نافحوا عنها وتجاسروا على رمي القرآن بما ليس فيه لأجلها يقول (مُحَمَّد بن جرير الطبري): (...وكان غير مبين منا عن نفسه، من خاطب غيره بما لا يفهمه عن المخاطب، ولا يرسل إلى أحد منهم رسولا برسالة إلا بلسان وبيان يفهمه المرسل إليه، لأن المخاطب والمرسل إليه إن لم يفهم ما خوطب به وأرسل إليه فحاله قبل الخطاب وقبل مجيئ الرسالة إليه وبعده سواء، إذ لم يفده الخطاب شيئا، كان به قبل ذلك جاهلا).[1]

فأي معنى فهمه صناديد قريش وأندادهم من بلغاء العرب وشعرائهم هل هو المعنى القرآني الذي اكتنفته ألفاظه ودلت عليه سياقات لم تنجل دلالاتها إلا بتفسير وشرح النبي ﷺ؟ أم أنّ في القرآن معاني متباينة منها ما هو شرعي محض ومنها ما هو لغوي تطورت دلالته بمجيئ الإسلام؟ أم أنّ معاني القرآن أصلها لغوي لا يشذ عما ألفته العرب في فصيح كلامها والعوالي من نظم أساليبها، ثم ما تلبث أن تتشرب دلالة سياقية يقتضيها مقام الخطاب وتستدعيها أسس التشريع، لهذا كان لابد من الإبانة عن المقصود بالمعنى القرآني، وهل يتفق مع المعنى المعجمي في لغة العرب لأن الألفاظ يمكن أن تكون هي نفسها عدا النزر اليسير منها، أما المعاني فضرورة اختلافها حتمية اقتضتها نوعية النصوص ذاتها.

الحديث عن المعنى القرآني يفضي دوما إلى الإشكال الذي تمت الإشارة إليه في مطلع هذا العنصر وهو هل فهم العرب الأوائل الذين عاصروا البعثة النبوية للقرآن الكريم

[1] – جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري: أبو جعفر مُحَمَّد بن جرير الطبري تحقيق محمود شاكر دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان الطبعة الأولى1421هـ/2001م ينظر خطبة المؤلف 11/1

واستوعبوا فعلا حقيقة معانيه، هناك من العلماء الأثبات المشهود لهم ببلوغ منزلة الاجتهاد من أقروا بهذه الحقيقة وأثبتوها حيث رأوا أن العرب في فجر الإسلام قبل أن يختلطوا بالعجم قد كانوا على جانب كبير من الدراية بفحوى الخطاب القرآني الذي وجدوه صنوا في لغته بمعجم ألفاظها متجانسا مع معجم لغتهم التي لم تَشُبها شائبة من العجمة في مقتبل عمر الدعوة، فأنّى لهم أن تنغلق دونهم المعاني وتستتر عنهم الدّلالات حتى وإن لم يستطيعوا مجاراة نظم القرآن نظرا لإعجازه.

ويأتي في مقدمة الذين قالوا بموافقة لغة القرآن للغة العرب . مما يعني فهمهم لفحوى خطابه . مُحَمَّد بن جرير الطبري الذي يقول : (فالواجب أن تكون معاني كتاب الله المنزل على نبينا مُحَمَّد ﷺ، لمعاني كلام العرب موافقة، وظاهره لظاهر كلامها ملائما، وإن باينه كتاب الله بالفضيلة التي فضل بها سائر الكلام والبيان)[1] يوحي نص الطبري في مبتدأ قراءته أنه يقصد أن العرب لا يمكنهم أن يجهلوا ما في القرآن من معاني لأنه تضمّن مثيل ألفاظهم وجنس أساليبهم، فما دام أنه لم يخالف طبيعة سليقتهم فهم أحق الناس بفهمه، غير أن ذلك موقوف عنده على الظاهر وليس مكنون الألفاظ الذي تصدر النبي صلى الله عليه وسلم لشرحه وتفسيره وليس المقصود في هذا الموضع الغريب الذي لم يظهر إلاّ مع من تناءوا عن مصادر الفصيح وينابيعه الصافية، وإنما المقصود هو عامة لغة القرآن وما دلّت عليه من معاني ظاهرة وأخرى خفية تدرج الصحابة الكرام في السؤال عنها فالشائع من الألفاظ في الاستعمال لا ضرورة لشرحه وهو ما قصد إليه الطبري بالظاهر الذي فهمه الأقحاح في مستهل نزول القرآن، لأن الظاهر عند الأوائل من فصحاء العرب صار من المبهم عند من جاء بعدهم من أبناء جلدتهم الذين خالطوا العجم وجاوروهم؛ حيث استلزم الراهن الجديد أن يتفاوت العرب في مستويات الفصاحة ويكون هذا التفاوت فارقا بين لغة العرب التي ضاهى لسانها لسان القرآن في معجم الألفاظ؛ فالرعيل الأول من العرب توقف فهمه عند حدود الظاهر المتميز بالشيوع والاطّراد في الاستعمال المتداول في بيئتهم البكر

[1] – المصدر السابق: ينظر خطبة المؤلف 12/1

قبل أن تُعكر وإلا كيف يتم تعليل جهود النبي صلى الله عليه وسلّم في تفسير عدد كبير من الألفاظ لمن هم أعراب بالسليقة.

أما (عبد الرحمن بن خلدون) فيصرح دون أدنى ريب في كون العرب لهم كامل القدرة على فهم ما ورد في القرآن حيث يقول: "إن القرآن نزل بلغة العرب، وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه"[1]

مثل هذا الرأي يمكن أن يلغي جميع مظاهر التفسير في عهد النبي ﷺ إذ يستحيل على من يفهم الخطاب الموجه إليه أن يسأل غيره عن فحواه ومؤدّى دلالة ألفاظه، فممّا لا شكّ فيه أن لغة القرآن لم يكن لها لتباين لغة العرب في ظاهر كل مستوى من مستوياتها، فلو تماثل النصّان في الألفاظ والمعاني إذا كانت مستقلة عن السياق لم ينشأ الداعي إلى تبيان المقاصد التي حوتها الآيات بنصوصها المحتكمة لسياقات تخصص الدّلالة الشرعية من غيرها.

وهناك من رأى خلاف ذلك من المتقدمين الأثبات المشهود لهم بالتمكن في علوم العربية قاطبة وهو (ابن قتيبة) الذي منح لكل لغة مكانتها التي تنضبط بخصوصياتها ومقتضى خطاباتها، فلغة العرب على أسبقيتها في جريها على اللسان هي أقل شأنا في الدلالة على مراد الخالق الذي وإن أنزل كتابه بها لا يمكن لعباده إن هم عرفوا جميع ما فيها وأحسنوا التمنطق بها وبلغوا شأوا لا يضاهى في البيان ليس لمثل هؤلاء أن يستوعبوا معاني لغتهم التي نطق بها لسان القرآن على نحو لم يألفوا نظمه ولا بلاغة كبلاغته التي أكسبت ألفاظهم معان تختزل كمًّا كبيرا من العبارات والنصوص، ألم يقل النبي ﷺ (أوتيت جوامع الكلم)[2] يوضح (ابن قتيبة) في كتابه "المسائل": الفارق بين اللغتين في المدونتين وقصور العقل العربي عن إدراك المعنى القرآني حيث يقول: (ويدلّ عليه قول بعضهم: يا رسول الله:

---

[1]– ينظر؛ مقدمة ابن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون، تحقيق علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر القاهرة، مصر، الطبعة السادسة، 2012م، 934/3

[2] – الفائق في غريب الحديث: محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق علي مُحَمَّد البجاوي ومُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر بيروت لبنان "د.ط" 1414هـ/1993م، 11/1

إنك لتأتينا بالكلام من كلام العرب ما نعرفه، ونحن العرب حقا ؟ فقال: "إن ربي علمني فتعلمت"[1]

الذين أشار إليهم (ابن قتيبة) بالبعضية في نصه[2] هو (عمر بن الخطاب) حيث ينقل (الزركشي) الجزء المبتور من هذه المحاورة التي كان أحد المستفهمين فيها قطب من أقطاب الجاهلية قبل أن يمنّ عليه الله بالإسلام؛ فعمر يقول للنبي صلى الله عليه وسلم (يا رسول الله إنك تأتينا بكلام من كلام العرب وما نعرفه ولنحن العرب حقا)[3] وقد أكد هذا الرأي (ابن تيمية) الذي أقر ذلك في كتابه مقدمة في أصول التفسير حيث يقول: "ويجب أن يعلم أن النبي ﷺ بيّن لأصحابه معاني القرآن كما بيّن لهم ألفاظه، فقوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل/44) يتناول هذا وهذا"[4].

تبيان رسول الله ﷺ للمعاني ضرورة لا بد منها؛ لأنّ القصديّة في القرآن متوقف فهم حقيقتها بالوحي دون غيره، أمّا بقية المعاني التي لم يتطرّق النبي ﷺ لشرحها فهي متروكة للاجتهاد، أو هي أوضح من أن تُفسّر وهناك ضرب من المعاني التي لا يعلم تأويلها إلا الباري عزّ وجلّ؛ لهذاقَالَ (ابْنُ عَبَّاسٍ): (تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ عَلَى أَرْبَعَةِ وُجُوهٍ : تَفْسِيرٌ تَعْلَمُهُ الْعُلَمَاءُ، وَتَفْسِيرٌ تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ، وَتَفْسِيرٌ لاَ يُعْذَرُ أَحَدٌ بِجَهَالَتِهِ يَقُولُ مِنَ الْحَلاَلِ وَالْحَرَامِ،

---

[1] – لفظ الحديث فيه اختلاف كبير ورواية ابن قتيبة نادرة فالشائع لفظ "أدبني ربي فتأدبت" ينظر؛ النهاية في غريب الحديث والأثر: مجد الدين أبو السعدات بن الأثير، تحقيق: محمود الطناحي وطاهر أحمد الزاوي، المكتبة العلمية بيروت لبنان "د.ط"، 1399هـ/1979م، مقدّمة المولّف، 2/1، والمقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة: شمس الدين مُحَمَّد بن عبد الرحمن السخاوي، تحقيق؛ مُحَمَّد عثمان الخشت دار الكتاب العربي بيروت لبنان، "د.ط"، 1405هـ، ص73–74

[2] – المسائل والأجوبة في الحديث والتفسير مُحَمَّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة تحقيق مروان عطية ومحسن خرابة دار بن كثير دمشق سوريا الطبعة الأولى 1410هـ/1990م ص48

[3] – البرهان في علوم القرآن: بدر الدين مُحَمَّد بن عبد الله الزركشي تحقيق مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم المكتبة العصرية بيروت لبنان الطبعة الأولى 1425هـ/2004م 99/1

[4] – مقدمة في أصول التفسير ابن تيمية مكتبة دار الحياة بيروت لبنان "د.ط" 1490هـ/1980م ص5

وَتَفْسِيرٌ لاَ يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ، مَنِ ادَّعَى عِلْمَهُ فَهُوَ كَاذِبٌ)[1] جعل عبد الله بن عبّاس التفسير أربعة أقسام منها قسم لا تعرفه إلا العرب بحكم صلتها الوثيقة بالمعين الفصيح من العربيّة والعلماء متفاوتون في الإلمام بمعجم العرب وما تكلّمت به، بل إنّ (لغة العرب لا يحيط بها إلا نبي)[2]، فهذه السعة غير المحدودة في كلام العرب هي التي صيّرت العلماء طبقات في مستويات تحصيلها، فالمعاني التي أدركوها في الجملة ليست هي التي تلقّاها النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالوحي، أمّا عن القسم الذي لا تعرفه إلاّ العربُ فمرهونة معرفته بفترة زمنيّة انتهت بزوال عصور الاحتجاج بل تضايقت وانزوت قبل ذلك حينما خالط العربُ العجم.

لقد أشار ابن تيمية في قوله المتقدّم إلى أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان يُبيّن لأصحابه المعاني والألفاظ معا؛ فإذا كانت المعاني مستغلقة بطبيعتها عن الأفهام لعارض ما فما بال الألفاظ التي تُماثل ما نطقت به العرب من مفردات في طبيعة أحرفها وبنية هيئتها؛ فهو صلّى الله عليه وسلّم تولّى شرح الألفاظ أي أنّه بيّن كيفية قراءتها أو أنّه تناول كلّ لفظ غريب ليس من المستعمل في عموم لغة القوم في زمانه، وهذا ما حذا بابن حيّان الأندلسي إلى تقسيم لغة القرآن قسمين بحسب طبيعة اللّفظ وتباين النّاس في فهمه حيث يقول: (لغات القرآن العزيز على قسمين قسم يكاد يشترك في فهم معناه عامة المستعربة وخاصتهم كمدلول السماء والأرض وفوق وتحت، وقسم اختص بمعرفته من له اطلاّع وتبحر في اللغة العربية وهو الذي صنف أكثر الناس فيه وسموه غريب القرآن)[3]. فالغريب لم ينشأ إلاّ مع متأخري المستعربين والذين خالطوا العجم عند دخولهم الإسلام، لأنّ اللّغة العربيّة مرّت بمراحل متعدّدة في نشأتها وتطوّرها، وأهمّ مرحلة تجاهلها العلماء هي تلك المرتبطة بحقبة

---

[1] – تفسير عبد الرّزّاق: عبد الرّزّاق بن همام الصّنعاني، المكتبة العلمية بيروت لبنان، الطّبعة الأولى، "د.ت"، 24/1

[2] – الرّسالة: مُحَمَّد بن إدريس الشافعي، تحقيق: أحمد مُحَمَّد شاكر، مكتبة دار التراث، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية 2005م، ص42

[3] – ترتيب تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب: أثير الدين أبي حيان الأندلسي تحقيق: داود سلوم ونوري حمودي القيسي، مكتبة النهضة العربية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1409هـ/1989م، ص9 .

العرب العاربة الذين تفتّقت ألسنتهم بالعربية الأولى ثمّ اندثرت رويدا رويدا بحكم تغايُر الأزمنة والأمصار، فما عدّه المتأخرون غريبا ومُستجلبا من لغات أخرى لعلّه يرجع في أُصوله إلى لغة العرب العاربة التي ذكر الله سبحانه وتعالى قصص بعض قبائلها في القرآن الكريم، فلا غرو أن ترد ألفاظ لغاتهم في القرآن وهي المقدّمة من حيث الفصاحة عن غيرها من اللّغات الأعجمية التي أشاع العلماء ذكرها في آي الذكر الحكيم.

إنّ التطوّر الدّلالي للألفاظ في اللّغة العربية هو الذي جعل منها متغيّرة بحسب طبيعة البيئة والزّمان، لهذا حدثت فروق جوهرية بين لغة العرب العاربة والعربة المستعربة ولغة القرآن ولغة من شافهوا النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وسمعوا منه أحاديثه وآيات القرآن نفسها على غير المألوف من فصاحتهم وبلاغتهم، فالمعجم اللّغوي في ظاهره هو نفسه إلاّ أنّه غير محدود في كمّ ألفاظه التي لم يستطع معجم من المعاجم العربية أن يأتي بأقلّ قليلها، ولو اجتمعت هذه المعاجم على كثرتها لما أحاطت بالمدوّنة اللّغوية على الوجه الذي يقرّبها زلفى من معجم لغة العرب المنضوية بجميع أصولها في مفردات معجم القرآن الكريم وأحاديث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم.

وهنا تبرز إشكالية الفرق بين معجمي لغة العرب ولغة القرآن، أي أنّهما يمكن أن يتّحدا في الألفاظ ويفترقا في معانيها، لكنّ هذا الفارق طبيعي بين كلّ النّصوص في كلّ اللّغات، ممّا يقود إلى مكمن الإشكال الحقيقي وهو: هل تباينت لغة القرآن عن لغة العرب باللّفظ والمعنى معا، أم أنّهما اختلفا في طرف من طرفي الثنائية واتّفقا في طرفها الأخير، وهذا ما يُفضي إلى ضرورة تبيان الفرق بين المعنى المعجمي والمعنى القرآني دون استثناء عامّه وخاصّه، والألفاظ في كلّ ذلك دائرة في فلكها تُسايرها وتتجاوب مع سياقاتها، فليس نصّ القرآن الكريم كمثل بقيّة النّصوص يمكن إجراء شكل من أشكال المقاربة اللّغويّة لكي يحدث توافق ما يمكن أن يُحيل لغة القرآن على مستوى دون مستواها الحقيقي ويسمو بغيرها من لغات النّصوص إلى منزلة ليست هي أحقّ بها، ولا يتبدّى ذلك إلاّ بعناصر الفصل التي تميّز بين خصائص كلّ لغة، لاسيما لغة العرب ولغة القرآن الكريم بحكم كونهما متشاكلتين في نوعية الألفاظ؛ أي أنّ ظاهر البنية هو نفسه، ميزة لغة القرآن، أنّ لفظها

يعبّر عن تمام معناها، الذي يتشبّع به ويدلّ عليه فلا مجال لمفارقة أحدهما للآخر؛ فاللّفظ خير سفير عن المعنى الذي وُضع له حيث يتعذّر إيجاد بديل عن اللّفظ القرآني بلفظ يحلّ محلّه وينوب عنه؛ لهذا فإنّ دوران المعنى في القرآن مرتبط ببنية اللّفظ ونوعيّته وطبيعتها أما عن بنيته فيتعلّق المعنى بالتّغيّر الاشتقاقي الذي يزيد في عدد صوّر اللّفظ الواحد وكل وجه له دلالة معينة لا يحيد عنها، وأما عن طبيعة اللّفظ فمرتبطة بالأصل الاشتقاقي الذي يرجع بالكلمة إلى أساس وضعها الأوّل وهو ما تعارفت عليه العرب في سليقة كلامها، وأما نوعية اللّفظ فتنحصر في الدلالة الشرعية التي يمكن أن تكون مشاركة لمعنى قديم في لغة العرب وهذا منحى من مناحي التّطوّر الدلالي، وهناك المصطلح القرآني الذي لا يدلّ إلا على معنى مخصوص ورد في الذكر الحكيم دون غيره، كما يوجد نوع آخر من الألفاظ العامّة التي توجد في اللغتين لغة العرب ولغة القرآن غير أنها تنضبط بالسياق القرآني وتتقيّد بقرائنه فيكون المعنى متميز لا يواشجه معنى آخر من كلام العرب ويمكن التّمثيل لكلّ نوع من هذه الأنواع على النّحو الآتي:

أ. الأصل الاشتقاقي للفظ

مبدأ المواضعة في اللغة العربية يستحيل تحديد منشئه الأوّل، لأنّ كثرة الاستعمال أدّت إلى ضياع الأصل الذي تجذّرت منه مختلف الألفاظ ذات العلاقة المشتركة في البنية الحرفيّة، غير أنّ بقاء أنموذج يحتذى ضرورة لابدّ منها لعدم انفصال التّواتر اللّفظي المتعاقب دون انقطاع، وتفاسير القرآن تعجّ بشواهد العودة إلى الأصل قصد معرفة المعنى الحقيقي للمفردة قبل أن تندرج في السّياق القرآني، وتقتصر هذه الظّاهرة على إعادة ألفاظ بعينها لا تؤثّر في دلالة السياق عموما، كأسماء الأعلام مثلا التي يرجعون أصل مسمياتها إلى لغة قديمة انحدرت منها أو لفظ انسلّت منه، وشواهد ذلك كثيرة كقولهم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة/31) قال عبد الله بن عباس (بعث رب العزة ملك الموت فأخذ من أديم الأرض؛ من عذبِها ومالحها، فخلق منه آدم، ومن ثَمَّ سُمِّي آدم؛ لأنه خلق من أديم الأرض).[1]

[1] – تفسير الطبري: 245/1

وقد ذكر المفسّرون أصولا اشتقاقية أخرى لأسماء الأنبياء كنوح ويعقوب فنوح مثلا لم يسم بهذا الاسم إلاّ لكونه ناح على قومه[1] لطول ما عهده منهم من الجفاء والعزوف والنّكران، فلما أيقن بهلاكهم بكى عليهم وناح لما علمه من المصير الذي سيؤولون إليه ونظير هذا تفسيرهم لحواء على أنها سميت كذلك؛ لكونها خلقت من حي وهو ضلع آدم عليه السلام[2]

ما يلاحظ على هذا النّوع من التّفسيرات أنها احتمالية لا ترجح بدليل قاطع، لاسيما إذا ما وردت هذه الأسماء في مواضع مختلفة من الذّكر الحكيم، أما إذا تم تفسير معاني هذه الألفاظ مستقلّة عن السّياق القرآني فإمكانية شرحها بهذا الشكل واردة، علما أنّ معظم أسماء الاعلام خاصة الأنبياء منهم لها ما يوضح معناها في الدّيانات السّماوية السّابقة .

ب . الصّيغ الصّرفية للّفظ:

إنّ المعجم الاشتقاقي لألفاظ القرآن الكريم زاخر بالموادّ اللّغوية الّتي تصرّفت على أوجه كثيرة شملت أصل الفعل وأزمنته وصيغة الفاعل واسمه وكذا اسم المصدر والمفعول بأنواعه، وكلّ صيغة لها دلالتها الخاصة بها قبل أن تندرج في السياق، ناهيك عنها حينما تتواشج بغيرها ضمن السياق العام؛ حيث تتلبّس بمعاني إضافيّة تمنحها دلالة مغايرة، لا تفصلها عن جذرها وإنّما تزيد المادّة اللّغويّة اتساعا في عدد بنياتها الاشتقاقية المتّحدة في نوعية الأحرف والمختلفة في الوزن، كفعل وفاعل وفعّال ومفعال وفعول وغيرها من الأوزان التي تتميّز بها اللّغة العربية، فإذا تمّ تتبّع هذه الظّاهرة في القرآن ألفينا أصولا غير قليلة قد تنوّعت مادّتها اللّغويّة وانتشرت فروعها لتشمل مجموع الصيّغ كلّها في المادّة اللّغوية الواحدة وتتموقع في جلّ مواضع الوظيفة النّحويّة داخل التّركيب، ويمكن انتخاب مثال يوضّح اطّراد هذه الظاهرة يبيّنه الجذر "شكر"وهو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كفَرَ

---

[1]- تفسير مقاتل بن سليمان: أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي، تحقيق أحمد فريد، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، 1424هـ/2003م، 349/2

[2]- المصدر نفسه 143/1

فَإِنَّ رَبِّيَ غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ (النمل/40) وقوله تعالى: ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (لقمان/14). وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة/158) وقوله تعالى: ﴿ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ (الإسراء/19) وقوله تعالى ﴿ اعْمَلُواْ ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ (سبأ/13).

لقد عوّدنا القرآن الكريم حين يأمر الله تعالى عباده أن يشكروه على نعمه عليهم – وهي مما لا يعدّ ولا يُحصى– أن يستعمل الأسلوب الآتي:

في البقرة [52] وكثير من السور قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وقد تكررت في القرآن الكريم كثيراً أي كي تشكروا.

وفي الواقعة [70] ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ ولولا إذا دخلت على الفعل المضارع أفادت التحضيض بمعنى «هلّا».

وفي يس [35و 73] ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ وهي كسابقتها تفيد طلب الشكر لله على نعمائه.

وفي البقرة [152] ﴿وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾ وهذه تأمر بالشكر، وتنهى عن جحود النعمة لأنها كفر.

وفي الأنبياء [80] ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ استفهام يُراد منه الطلب والترغيب بالشكر.

وفي الزمر [7]﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ فالله تعالى يرضى عن الذين يشكرونه.

وفي إبراهيم [7] ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ قَسَمٌ بأن الله تعالى يزيد وسيزيد له من فضله.

وفي الزمر [66] ﴿وَكُن مِّنْ الشَّاكِرِينَ﴾ أمرٌ بالتزام ودوام الشكر من العبد لربّه. فكل صيغة من الصيّغ السابقة.

لمادة "ش ك ر" توجيهها الدلالي المرتبط بسياق ما رغم التعدّد في البنية المشتركة، إلا أنّ نمط الصيغة المتغيّر يمنح المعنى تجديدا ما يصرف عن الظاهر من اللّفظ؛ حيث تنشأ بؤرة إشعاعية في الصّيغة المنفردة بسيمة دلالية متميزة في التّركيب النّحوي من جهة والسّياق

العام من جهة أخرى، والشاهد في هذا الموضع قوله تعالى: ﴿ اعْمَلُواْ ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ (سبأ/13) يشرح الزمخشري هذه الآية بقوله:

(اعْمَلُوا آلَ داوُدَ حكاية ما قيل لآل داود. وانتصب شُكْراً على أنه مفعول له، أي : اعملوا لله واعبدوه على وجه الشكر لنعمائه. وفيه دليل على أن العبادة يجب أن تؤدّى على طريق الشكر. أو على الحال، أي: شاكرين. أو على تقدير اشكروا شكرا، لأن اعملوا فيه معنى اشكروا، من حيث إنّ العمل للمنعم شكر له. ويجوز أن ينتصب باعملوا مفعولا به. ومعناه : إنّا سخرنا لكم الجنّ يعملون لكم ما شئتم، فاعملوا أنتم شكرا على طريق المشاكلة، الشَّكُورُ المتوفر على أداء الشكر، الباذل وسعه فيه : قد شغل به قلبه ولسانه وجوارحه، اعتقادا واعترافا وكدحا، وأكثر أوقاته. وعن ابن عباس رضى الله عنهما من يشكر على أحواله كلها. وعن السدي: من يشكر على الشكر. وقيل: من يرى عجزه عن الشكر. وعن داود أنه جزّأ ساعات الليل والنهار على أهله، فلم تكن تأتى ساعة من الساعات إلاّ وإنسان من آل داود قائم يصلّي. وعن عمر رضى الله عنه أنه سمع رجلا يقول: اللهم اجعلني من القليل، فقال عمر: ما هذا الدعاء؟ فقال الرجل: إني سمعت الله يقول: وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ فأنا أدعوه أن يجعلني من ذلك القليل، فقال عمر: كل الناس أعلم من عمر)"[1].

كان من الممكن أن يتيسّر تفسير هذه الآية لعدم وجود ما يوشّحها بالغموض، إلا أنّ لفظ "شكرا" بصيغته الصرفية ووظيفته النحوية على أنه أخذ حكم المفعولية التي تشتقّ في العادة من الفعل نفسه، فحلول هذه الصيغة في هذا الموضع بالذات مع تركيب لا تُوائم فعله ولا ينسجم معنى الشكر مع سياق دلالة الآية، فمثل هذا الإشكال يحفز العقل على استنفار جميع قدراته لإيجاد العلاقة المنطقية بين العمل والشكر؛ فالأول مادّي محسوس في العادة، أما الثاني فمعنوي مرتبط بذكر اللّسان تبعا لإقرار القلب بالفضل، ولعلّ نظير هذه الصيغة كثير في الآيات السابقة، كلها تفضي إلى اتّساع في المعنى، فصيغة "مشكورا" في آية

[1] – الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتاب العربي بيروت لبنان "د.ط" 1407هـ، 512/3.

الإسراء تحيل إلى مجاز ينحرف بالدّلالة السّياقيّة نحو تفسير مغاير يجتهد فيه العقل ليدرك تمام المقصد من الساعي نفسه الذي يحقّق منتهى السّعي المحمود، كما تحوّل الباري عزّ وجلّ من الشَكور في أسمائه الحسنى إلى الشاكر في آية البقرة ليكون ذلك من تمام منّه على عباده الذين استحقّوا الثّناء لما عرفوا سبيل الإحسان في موقفهم مع عيّال الله.

ج. اللّفظ اللّغوي وانضباطه بالسّياق القرآني:

كثيرة هي الألفاظ التي يشترك فيها المعجم العربي مع المعجم القرآني، بحكم أنّ اللّسان واحد، حيث يرد اللّفظ في القرآن على جنس ما ألفته العرب في كلامها، لكنّه سرعان ما ينضبط بالسياق القرآني وينكفئ عن معناه اللّغوي ليكتسب دلالة جديدة تحفّها مختلف القرائن الحالية والمقالية؛ أي أنّ مقتضى الخطاب هو الّذي يحمّل اللّفظ المعنى المستحدث الّذي يمكن أن يتغيّر بسياق آخر، يقول ابن القيم: (السّياق يرشد إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق وتنوع الدلالة .وهذا من أعظم القرائن الدّالة على مراد المتكلّم فمن أهمله غلط في نظره وغالط في مناظرته)[1]، وتتنوّع الشواهد على ذلك بحسب الأساليب المعتمدة في نصوص الآيات فإن هي وردت على سبيل المجاز مثلا يدلّ عليها قوله تعالى: ﴿وَامْتَازُوا اليَومَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ (يس/59) وكذا قوله في الدخان: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنَتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ﴾ (الدخان/49)، فأيّ امتياز أو عزّة للكافرين والمجرمين في موقفهم هذا؟ فالسّياق هو الذي قصر معنى لفظتي "امتازوا والعزيز" على ما هما عليه في الآيتين، أما شاهد دور السّياق في تقييد دلالة اللفظ ضمن التّعابير الحقيقية قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ (البقرة/255)، قال أبو جعفر الطبري: وأصل "الكرسي" العلم[2]. ومنه قيل للصحيفة يكون فيها علم مكتوب "كراسة" ومنه قول الراجز في صفة قانص:

---

[1]- بدائع الفوائد: ابن قيم الجوزية، ضبط وتخريج: أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، 1414هـ/1994م، 2/9-10.

[2]- تفسير الطبري 17/3.

حتى إذا ما احتازها تكرسا[1]

يعني علم. ومنه يقال للعلماء "الكراسي"؛ لأنهم المعتمد عليهم، كما يقال : "أوتاد الأرض". يعني بذلك أنهم العلماء الذين تصلح بهم الأرض، ومنه قول الشاعر:

يحف بهم بيض الوجوه وعصبة كراسي بالأحداث حين تنوب[2]

يعني بذلك : علماء بحوادث الأمور ونوازلها . والعرب تسمي أصل كل شيء "الكرس" يقال منه: "فلان كريم الكرس" أي كريم الأصل، فمعنى اللّفظ على هذا النحو يحتمل أن يكون ظاهرا في أصل وضعه على ما أقرّه علماء اللّغة[3] ثمّ تبعهم في ذلك من فسّر لفظ (الكرسي) على الحقيقة اللّغوية في آية البقرة، غير أنّ سياق الآية عند الأثبات من المفسرين الذين يأتي في مقدّمتهم حبر الأمة عبد الله بن عبّاس الذي رأى رأيه الطبري كما سبقت الإشارة إلى ذلك آنفا من أنّ لفظ (الكرسي) في الآية دلالته مقتصرة على العلم والدّليل على ذلك ما سيق من شواهد الشّعر التي تؤكّد مثل هذا التوجّه، فلئن تمّ الأخذ بهذا الرأي الرّاجح يمكن أن يكون السّياق قد أعمل أثره في لفظ (الكرسي) حيث أحاله من الماديّ المحسوس إلى المعنوي المدرك بالعقل.

د . اللّفظ الشرعي في القرآن:

إنّ حتمية ارتباط لغة القرآن بالمعجم العربي ضرورة اقتضتها نوعية الألفاظ الواردة في النّص الشّريف؛ حيث إنّه لم ينفصل عن تلك الألفاظ ومعانيها حتّى في خصوصية بعض ألفاظه التي منحها دلالة جديدة ومغايرة لم تعرف لها العرب مثيلا في كلامها، فحينما وُظّفت هذه الألفاظ بمقتضى مفهومها المستحدث في القرآن بقيت على صلة ولو كانت ضئيلة بالمعنى اللّغوي لأنّ اللّفظ هو نفسه، والأمثلة على ذلك كثيرة لاسيما في حقل

---

[1]– ديوان العجاج، رواية وشرح: عبد الملك بن قريب، تحقيق: عبد الحفيظ السطلي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دت، 185/1.

[2]– البيت مجهول قائله وقد أوردته كتب التفسير نقلا عن الطبري.

[3]– تهذيب اللغة: أبو منصور الأزهري، تحقيق: عبد السلام هارون، دار المعارف، مصر، دط، دت، 55/10 .

العبادات كالصّلاة والزكاة والصيام والحجّ، فالعرب قد عرفت نظائر هذه الألفاظ في لغتها على نحو مقارب في المعنى إلاّ أنّ القرآن منحها بعدا دلاليا آخر أو معنى مخصوص، فلم تعُد الصّلاة هي الدّعاء فحسب، بل تعدّته لتشمل أركانا وطقوسا أخرى من بينها الدّعاء لأنّه روحها في الحقيقة، وهذا لا يعني أنّهم لم يعرفوا عبادة الصّلاة التي كانت تؤدّى بشكل مختلف عمّا جاء به الإسلام قال تعالى: (وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِنْدَ البَيْتِ إلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً) (الأنفال/35)، هذا عند عرب الجاهلية، أمّا عن الأقوام الذين سبقوهم فيبيّنه قوله تعالى: (فَنَادَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي المِحْرَابِ) (آل عمران/39) فالذي خصّص دلالة لفظ الصّلاة وغيرها من ألفاظ العبادات هو الأحكام الفقهية الضابطة لكيفية الأداء وتعاليم الامتثال للمباح والمحظور فيها.

قال تعالى: (وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ) (هود/114)، فهذا الوقت المحدّد يبيّن أنّ شريعة الصّلاة لها أحكام ترتبط بزمن عند أدائها تكفّل الحديث النبوي بشرحها وتوضيح خصوصياتها، وهناك أكثر من آية ذكر فيها لفظ الصّلاة على جهة التخصيص المميّز لجنسها وهيئتها بعيدا عن المعنى اللّغوي الذي ارتبطت به في كلام العرب الذي تنوّعت فيه دلالات اللّفظ كذلك بين الدّعاء والرّحمة، قال الأعشى في المعنى الأوّل:

وقابلها الرّيحُ في دنّها وصلّى على دنّها وارتسمْ[1]

قال الراعي النميري في المعنى الثاني:

صلّى علَى عزّةَ الرّحمنُ وابنتها ليلى وصلّى على جاراتها الأُخَرُ[2]

فهذه المعاني لها ما يشاكلها في القرآن الكريم الذي ذكر للفظ (الصّلاة) معاني تماثل ما تمّت الإشارة إليه في هذين البيتين إلاّ أنّه أفرد لكلّ عبادة من العبادات معنى يميّزها لم تعهد العرب مثيله في معانيها، وهذا ما عرفه العلماء بالتطوّر الدّلالي الذي منح للّغة تجديدا

[1] – ديوان الأعشى (ميمون بن قيس)، تحقيق: مُحَمَّد مُحَمَّد حسين، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط7، 1983، ص169

[2] – ديوان الرّاعي النميري، تحقيق: راينهرت قاييرت، نشر: شتايز بقيسبادن، دار الآفاق، بيروت، لبنان، ط1، 1980، ص122.

في دلالات سياقات نصوصها ومعاني ألفاظها، وأكثر ما يندرج في هذا الباب الدّلالة الشرعية[1].

ثانيا: معجم ألفاظ القرآن في الشعر الجاهلي

إن شغف الصحابة والمفسرين للقرآن ومن بعدهم بالشّعر فله ما يبرّره لكونهم لجؤوا إليه لجوء المضطر إلى الماء في الرمضاء، حيث وجدوا فيه المعاني اللّغوية التي تعينهم على التفسير الأوّلي لألفاظ القرآن قبل أن تقيّدها قرائن ما وهذا النّوع من التفسير عند الاستعانة بالشّعر أقرّه من هو معدود من فصحاء العرب ناهيك عن الصحابة رضوان الله عليهم وهو عمر بن الخطاب حينما قال: (يا أيّها النّاس تمسّكوا بديوان شعركم في جاهليتكم، فإنّ فيه تفسير كتابكم)[2]، فأساس التفسير اللّغوي منشؤه ألفاظ الشعر ومعانيه لكونها أقرب ما تكون إلى لغة القرآن دون الموازنة بينهما في نوعية المعاني وعدد الألفاظ، فالألفاظ محصورة في القرآن بعدد معيّن أمّا عن معانيه فلا يمكن استقصاؤها عكس الشعر الذي يمكن إدراك معانيه قبل حصر ألفاظه، لكن أيّ طريقة أمثل في تفسير ألفاظ القرآن بالمعاني التي وردت نظيراتها في الشّعر العربي وإن لم توافقها تمام الموافقة والمطابقة، فإذا تمّ إعداد معجم لألفاظ القرآن في الشعر العربي فإمكانية الورود حتمية لا بدّ منها، حيث تناهز النسبة زهاء تسع وتسعين بالمائة أو دونها بقليل، ويكفي أن نستشهد على ذلك ببعض الأمثلة

اللفظة في القرآن	الآية	رقمها	السورة	البيت الشعري

[1] – ينظر الدّراسة المفصّلة في التطور الدّلالي بين معاني لغة العرب والمعاني الشرعية في القرآن؛ التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن: عودة خليل أبو عودة، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، ط1، 1985.

[2] – الموافقات: أبو إسحاق الشاطبي، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن القيّم، الرياض، السعودية، الطبعة الرابعة، 2013، 58/1.

اسم	البسملة		بداية القرآن	إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر[1]
الحمد	الحَمْدُ لِلَّهِ	1	الفاتحة	إليك أبيت اللّعن كان كلالها إلى الماجد القرم الجواد المحمّد[2]
ربّ	**رَبِّ الْعَالَمِينَ**	1	الفاتحة	وهو الربُّ والشهيدُ على يو مِ الحِيَارَيْنِ والبلاءُ بلاء ُ[3]
ملك	**مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ**	4	الفاتحة	وأيّام لنا غرّ طوالٍ عصينا المَلْكَ فيها أن ندينَا[4]
اهدنا	إهدِنَا الصِّرَاطَ المستَقِيمَ	6	الفاتحة	فَأَلْحَقَنَا بالهَادِيَاتِ وَدُونَهُ جَوَاحِرُهَا في صَرَّةٍ لَمْ تَزَيَّلِ[5]
الصراط	//	//	//	شحّنا أرضهم بالخيل حتّى تركناهم أذلّ من الصراط[6]
الضالين	//	7	//	ألم تسأل فتخبرك الدّيار

[1]– ديوان لبيد بن ربيعة العامري، تحقيق: عمر فروق الطباع، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1417هـ/1997م، ص214

[2]– ديوان الأعشى، شرح وتعليق: مُحَمَّد مُحَمَّد حسين، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، (دط)، 1950، ص59.

[3]– البيت للحارث بن حلّزة في ديوانه، تحقيق: عمر فاروق الطبّاع، دار القلم، بيروت، لبنان، (د، ط)، (د، ت)، ص55.

[4]– ديوان عمرو بن كلثوم، تحقيق: إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1991، ص51.

[5] – ديوان امرئ القيس، تحقيق: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، مصر، (د، ط)، 1958، ص120.

[6]– ينسب البيت إلى أبي ذؤيب الهذلي ولم نعثر عليه في ديوانه.

				عن الحيّ المضلّل أين ساروا؟[1]
آمين			الفاتحة	يا ربّ لا تسلبني حبّها أبدا ويرحم الله عبدا قال: آمينا[2]
الكفر	إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ	6	البقرة	يعلو طريقة متنها متواتر فِي لَيْلَةٍ كَفَرَ النُّجُومَ غَمَامُهَا[3]
سواء	إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ	6	البقرة	سَوَاءٌ عَلَيْهِ أَيَّ حِينٍ أَتَيْتَهُ أَسَاعَةَ نَحْسٍ تُتَّقَى أَمْ بِأَسْعَدِ[4]
يخادعون	يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم	9	البقرة	أَبْيَضُ اللَّوْنِ لَذِيذٌ طَعْمُهُ طَيِّبُ الرِّيقِ إِذَا الرِّيقُ خَدَعْ[5]

[1]- البيت بلا نسبة في الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، تقديم وإشراف ومراجعة: محمّد عبد الرحمن المرعشلي، إعداد: محمّد عبد الرحمن المرعشلي وآخرون، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ـ لبنان، (د.ط)، (د.ت)، 105/1.

[2]- ديوان مجنون ليلى، تحقيق: عبد الستار أحمد فرّاج، دار مصر للطباعة، القاهرة، مصر، (د.ط)، (د.ت)، ص219.

[3]- ديوان لبيد ص309.

[4]- ديوان زهير بن أبي سلمى، تحقيق: عمر فروق الطباع، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، لبنان، (د.ط)، (د.ت)، ص26.

[5]- البيت لسويد بن كاهل وهو في المفضليات: المفضل الضبي، تحقيق: أحمد محمّد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة ـ مصر، الطبعة التاسعة، 2006، ص191.

	وَمَا يَشْعُرُونَ			
صيّب	أو كصيّبٍ مِنَ السَّماءِ	19	البقرة	فَلاَ تَعْدِلِي بَيْنِي وَبَيْنَ مُغَمَّرٍ سَقَتْكِ رَوَايَا المزْنِ حَيْثُ تَصُوبُ[1]
بشّر	وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ	25	البقرة	يُبَشِّرُنِي الغُرَابُ بِبَيْنِ أَهْلِي فَقُلْتُ لَهُ : ثَكِلَتْكَ مِنْ بَشِيرِ[2]
يستحي	إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا	26	البقرة	ألا تَسْتَحِي مِنَّا المُلُوكُ وَتَتَّقِي مَحَارِمَنا لاَ يَبُؤُ الدَّمُ بِالدَّمِ[3]
استوى	ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سماوات	29	البقرة	فأَوْرَدْتُهُمْ مَاءً بِفَيْفَاءَ قَفْرَةٍ وَقَدْ حَلَّقَ النَّجْمُ اليَمَانِيُّ فَاسْتَوَى[4]
سبحان	قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْم لَنَا إِلَّا	33	البقرة	سبحانه ثمّ يبحانا نعوذ به وقبلنا سبّح الجودي والجُمُدُ[1]

[1]– ديوان علقمة بشرح الأعلم الشنتمري، تحقيق: لطفي الصقال ودريّة الخطيب، دار الكتاب العربي، حلب، سوريا، الطبعة الأولى، 1969، ص34.

[2]– البيت بلا نسبة في البحر المحيط في التفسير: أبو حيان الأندلسي، دار الفكر، بيروت . لبنان، (د، ط)، 1412هـ/1992م، 253/1.

[3]– البيت لجابر بن حني التغلبي في المفضليات، ص951.

[4]– البيت بلا نسبة في الجامع لأحكام القرآن254/1

	مَا عَلَّمْتنَا			
سجد	وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ	34	البقرة	بَخَيْلٍ تَضِلُّ الْبُلْقُ فِي حَجَرَاتِهِ تَرَى الأُكْمَ فِيهِ سُجَّداً لِلْحَوَافِرِ[2]
رغد	وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً	35	البقرة	بَيْنَمَا المرْءُ تَرَاهُ نَاعِمَاً يَأْمَنُ الأَحْدَاثُ في عِيْشٍ رَغْدٍ[3]
أزلّ	فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانِ عَنْهَا	36	البقرة	يزلُّ الغلامُ الخِفُّ عن صهواته ويلوي بأثواب العنيف المثقّلِ [4]
كدأب	كَدَأْبِ آلِ فِرعَوْنَ	11	آل عمران	كَدَأبكَ مِنْ أمّ الْحُوَيْرِثِ قَبْلَهَا وَجَارَتِهَا أمّ الرَّبَابِ بِمَأْسَلِ[5]

ما تمّ انتخابه من ألفاظ في الجدول السابق لا يعني أننا استوفينا أكبر عدد من المفردات التي لها مقابل في الشعر الجاهلي لأنّ إعداد معجم مفصّل يورد جميع الألفاظ القرآنية مفهرسة هجائيا يقتضي إيجاد ما يقابلها في الشعر الجاهلي دون مراعاة المعنى في البداية لرصد وجه التشابه بين المعجمين، ويعقب هذه المرحلة تتبّع المعاني الموضّحة للّفظ القرآني قصد شرحه، وقد حفلت كتب التفسير بعدد كبير من الشواهد الشعرية[6] يَستنجدُ بها المفسّر لتبيان المستغلق من المعاني في آي الذكر وهذا هو دأب كل من يريد تأصيل المعنى

---

[1]– ديوان أميّة بن أبي الصّلت، تحقيق: عبد الحفيظ السطلي، المطبعة التعاونية بدمشق، سوريا، الطبعة الثالثة، (د، ت)، ص30.

[2]– ديوان حميد بن ثور الهلالي، تحقيق: عبد العزيز الميمني، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، (د، ط)، 1951، ص96.

[3]– البيت لامرئ القيس وهو في البحر المحيط في التفسير: أبو حيان305/1

[4]– ديوان امرئ القيس ص445.

[5]– المصدر نفسه ص83

[6]– الشاهد الشعري في تفسير القرآن الكريم (أهميته وأثره ومناهج المفسرين في الاستشهاد به): عبد الرحمن بن معاضة الشهري، دار المنهاج، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، 1431هـ، ص454.

مقترنا بلفظه، الذي وإن تطوّر في اللّغة العربية فهو لم يتغيّر في السياق القرآني الذي يمنحه تجديدا دون أن يفقده أصله.

ثالثا: المعاني اللغوية المختلف فيها عند المفسرين

لما كانت اللّغة بألفاظها حمّالة أوجه وفق المعاني التي يتشبّع بها اللّفظ في المعجم تبعا لما استقصاه العرب في كلامهم؛ كان لا بدّ من أن يتعدّد تفسير اللّفظ الواحد بحسب الأوجه المحتملة من جهة والرّاجحة من جهة أخرى، أمّا المحتملة فترتبط في العادة بين ما يُعرف بالعلاقات الدّلالية عند المحدثين كالمشترك اللّفظي والترادف والتضاد[1]، فكلّ ظاهرة من هذه الظواهر لها أكثر من شاهد في القرآن الكريم حيث اتخذها المفسّرون مطيّة للاختلاف على جهة التنوّع في الشرح والتأويل، ولا خلاف بينهم في كون القرآن مجانسا للغة العرب في ظاهر الألفاظ؛ يقول الشاطبي: (فإن قلنا: إن القرآن نزل بلسان العرب وإنه عربي وإنه لا عجمة فيه، فبمعنى أنه أنزل على لسان معهود العرب في ألفاظها الخاصة وأساليب معانيها، وأنها فيما فطرت عليه من لسانها تخاطب بالعام يراد به ظاهره، وبالعام يراد به العام في وجه والخاص في وجه، وبالعام يراد به الخاص، والظاهر يراد به غير الظاهر، وكل ذلك يعرف من أوّل الكلام أو وسطه أو آخره، وتتكلم بالكلام ينبئ أوله عن آخره، أو آخره عن أوله، وتتكلم بالشيء يعرف بالمعنى كما يعرف بالإشارة، وتسمي الشيء الواحد بأسماء كثيرة، والأشياء الكثيرة باسم واحد، وكل هذا معروف عندها لا ترتاب في شيء منه هي ولا من تعلق بعلم كلامها)[2].

فالعموم والخصوص والظاهر والمضمر لا يحدّدها إلاّ سياق تشكيلته ألفاظ هي نفسها قابلة للتعدّد والتنوّع قبل أن تقترن، فقبل أن تتباين آراء العلماء في العلاقات الدّلالية السابقة فإنّها سلكت منحى مغاير في ما عُرف عندهم (بالوجوه والنظائر) أو (بالأشباه والنظائر) وهي صنو المشترك اللّفظي مع اختلاف في كمّ المعاني التي تزيد وتنقص.

---

[1]- ينظر تفصيل ذلك: التفسير اللّغوي للقرآن الكريم: مساعد بن سليمان بن ناصر الطيّار، دار ابن الجوزي، الرياض، السعودية، الطبعة الثانية، 1427هـ، 230 وما يليها.

[2]- الموافقات: الشاطبي103/2

أ . الوجوه والنظائر:

ما جرى لمصطلح الأشباه والنظائر هو نفسه ما وقع لجميع المصطلحات في التراث العربي؛ حيث تباين العلماء في توضيح مفهومه بين طرفي المصطلح الأشباه من جهة والنظائر من جهة أخرى، ثمّ تتّسع الدائرة لتشمل مصطلح (الوجوه) الذي يرادف تارة مصطلح الأشباه وتارة مصطلح النظائر[1]، وأشهر ما تواضع عليه العلماء في تعريف الأشباه والنظائر النّص الذي ذكرته حاتم صالح الضامن في مقدّمة تحقيقه لكتاب (الوجوه والنظائر في القرآن العظيم) لمقاتل بن سليمان البلخي: (معنى الوجوه والنظائر أن تكون الكلمة واحدة ذُكرت في مواضع من القرآن على لفظ واحد وحركة واحدة، وأريد بكلّ مكان معنى غير الآخر، فلفظ كلّ كلمة ذُكرت في موضع نظير للفظ الكلمة المذكورة في الموضع الآخر هو النظائر وتفسير كلّ كلمة بمعنى غير المعنى الأخرى هو الوجوه، فالنظائر اسم للألفاظ والوجوه اسم للمعاني)[2]، والأمثلة على ذلك كثيرة في القرآن كما سبقت الإشارة إلى ذلك آنفا فمنها لفظ (الإتيان) مثلا:

يقول الدامغاني: ((تفسير الإتيان على ستة عشر وجهًا: الدنو، والإصابة، والقلع، والعذاب، والسوق، والجماع، والعمل، والإقرار والطاعة، والخلق، والمجيء، والظهور، والدخول، والمضي، والإرسال، والمفاجأة، والنزول.

فوجه منها، الإتيان: الدنو، قوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللهِ﴾ (النحل/1) أي: قرب أمر الله ودنا، وهي الساعة.

والوجه الثاني، الإتيان: الإصابة، قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ﴾ (الأنعام/40) يعني: أصابكم.

والوجه الثالث، الإتيان: القلع، قوله عز وجل في سورة النحل: ﴿فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾ (النحل/26) يعني: قلع بنيان ديارهم.

---

[1]- التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسمائه وتصرفت معانيه: يحيى بن سلام بن أبي ثعلبة التيمي، تحقيق: هند شلبي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، (د، ط)، 1979، ص8.

[2]- الوجوه والنظائر في القرآن العظيم: مقاتل بن سليمان، تحقيق: حاتم صالح الضامن، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية، ط2، 2010، ص8.

والوجه الرابع، الإتيان: العذاب، قوله عز وجل في سورة الحشر: ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ (الحشر/2) أي: عذبهم الله تعالى.

الوجه الخامس، الإتيان: السوق، قوله تعالى في سورة النحل: ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ (النحل/112) أي: يسوق إليها رزقها من كل مكان.

السادس، الإتيان: الجماع، قوله عز وجل: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء/165) وكقوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ (العنكبوت/29).

والوجه السابع، الإتيان: العمل، قوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ (العنكبوت/28) أي: تعملون في ناديكم المنكر.

والوجه الثامن، الإتيان: الإقرار والطاعة، قوله وتعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ (مريم/93)، أي: مقر له بالعبودية.

والوجه التاسع، الإتيان: الخلق، قوله تعالى في سورة الملائكة: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ (النساء/133) يعني: إن يشأ يهلككم ويميتكم، ويخلق خلقًا جديدًا.

والوجه العاشر، الإتيان: المجيء بعينه، قوله تعالى في سورة مريم: ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾(مريم/27) يعني: فجاءت إلى قومها بولدها.

الوجه الحادي عشر، الإتيان: الظهور، قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ (الصف/6) يعني: يظهر ويخرج .

الوجه الثاني عشر، الإتيان: الدخول، قوله عز وجل في سورة البقرة: ﴿وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ (البقرة/189) أي: ادخلوها من أبوابها.

الوجه الثالث عشر، الإتيان: المضي قوله عز وجل في سورة الفرقان: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾ (الفرقان/4) يعني: ولقد مضوا على القرية .

الوجه الرابع عشر، الإتيان: الإرسال، قوله تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (المؤمنون/90) يعني: أرسلنا جبريل بالقرآن.

الوجه الخامس عشر، الإتيان: المفاجأة، قوله تعالى في سورة يونس: ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا﴾ (يونس/24).

الوجه السادس عشر، الإتيان: النزول: قوله عز وجل: ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا﴾ (إبراهيم/17)[1].

يبدو للوهلة الأولى أنّ هذا التفسير لمعاني لفظ (أتى) وتنوّعها مقبولا إلى حدّ بعيد لكن دون الدّخول في تحكيم نظريو السياق فأصحاب الوجوه والنظائر أنفسهم تباينوا في معاني هذا اللّفظ وذلك بالعودة إلى كتب اللّغة من جهة وما يقتضيه مدلول الآية من جهة أخرى، فردّ بعضهم على بعض ونقض المتأخر منهم قول المتقدّم بما لا يدع أيّ شكّ في كون ألفاظ القرآن حمّالة أوجه يحترز منها عند التفسير[2]، وقد أقام الفيروز آبادي تفسيره على نحو من هذا المذهب حيث عقد بابا واسعا في الأشباه والنظائر عدّد فيها معاني أضراب هذا اللّفظ (أتى) وغيره[3].

ب . المشترك اللّفظي:

يرتبط هذا المصطلح عادة بالمفردة التي لها معنيين أو ثلاث على الأكثر فإذا تجاوزت هذا العدد عُدّت من الوجوه وإن كان في هذا القول خلاف، وشواهد المشترك في القرآن تتواشج في الغالب مع الأشباه والنظائر ويمكن قصر المثال الذي اختلفوا فيه على لفظ (النجم) الذي فسّر بمعنيين، فجذر الكلمة في اللّغة يدلّ على الطلوع والظهور، يقول ابن فارس: (النون والجيم والميم أصل صحيح يدلّ على طلوع وظهور، ونجم النّجم: طلع)[4]،

---

[1]- الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز: أبو عبد الله الحسين بن محمّد الدّامغاني، تحقيق: مُحَمَّد حسن أبو العزم الزّفيتي، منشورات وزارة الأوقاف، القاهرة، مصر، (د، ط)، 2010، 20/1.

[2]- طرائق اختلاق الوجوه في كتب الوجوه: عبد الجبار فتحي زيدان، مطبعة الأخوة، الموصل، العراق، الطبعة الأولى، 2014، ص22 وما يليها.

[3]- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: الفيروز آبادي، تحقيق: مُحَمَّد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت ـ لبنان، (د، ط)، (د، ت)، 244/2-246.

[4]- معجم المقاييس في اللّغة: ابن فارس، تحقيق: عبد السلام مُحَمَّد هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان، (د، ط)، (د، ت)، 396/5.

فالوجه الأوّل: وهو الكوكب، كما في قوله تعالى: ﴿وَعَلاَمَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (النحل/16)، وقد سميّ الكوكب بالنّجم لظهوره وطلوعه، يقول الرّاغب (أصل النجم الكوكب الطالع)[1]، والوجه الثاني: النبت الذي لا ساق له: كما في قوله تعالى: ﴿والنَّجْمُ والشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ (الرحمن/5)، وهو الآخر على صلة بتلك الدّلالة، وتسمية النبات بالنجم تسمية مجازية لصفة الظهور فيه، يقول الزمخشري: (ومن المجاز: نجم النبات)[2]، ولعلّ تخصيص النبات الذي لا ساق له بالنجم من دون الشجر لأنّه يشقّ الأرض ويظهر بينما الشجر ظاهر على سوقه أصلا[3].

ج ـ الترادف:

لقد كاد أن ينعقد الإجماع في مصطلح الترادف على أنّه المعنى الواحد للفظين مختلفين؛ أي أنّه اتّحاد اللّفظين في دلالة معجمية واحدة قد يتمكّن السياق من الفصل بينهما وهذا ما أوجب الخلاف بين المفسرين في مثل هذه الظاهرة اللّغوية وشواهد ذلك من القرآن كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ (البقرة/2)، فاحتمال أن يحلّ لفظ (الشك) مكان لفظ (الريب) وارد لا على جهة التأكيد وإنّما على سبيل التفسير والشرح فالمفسرون دأبوا على تعريف أحدهما بالآخر، والحقيقة أن بينهما تقاربا في المعنى يسوّغ ذلك، ويسوغ له أن ألفاظ العربية ـ حسب المنكرين للترادف ـ لا يمكن أن يحل أحدها مكان الآخر، فالريب والشك بينهما فروق في المعنى، وأكثر ما يؤكد الفرق بينهما أن الريب جاء وصفا للشك في عدة مواقع من القرآن الكريم، كقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ

---

[1]– المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، ضبط: هيثم طعمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، 1423هـ/2002م، ص505.

[2]– أساس البلاغة: الزمخشري، تحقيق: محمّد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، 1419هـ/1998م، 253/2.

[3]– الاشتراك اللّفظي في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق: مسعود بوبو، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 1999، ص222.

مُرِيبٍ﴾ (هود/110) وقوله تعالى في سبأ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾ (سبأ/54).

فالمعنى عند المفسّرين يمكن أن يفضي إلى الشكّ أو إلى الريب على حدّ سواء على جهة الخلاف في ترجيح أحدهما على الآخر بما يقتضيه السياق، إذ لا يوجد ما يفسرون به جنس لفظ منهما دون الآخر إلاّ بالعودة إلى أحدهما، وممّا لا شكّ فيه أن لا ترادف مطلق في القرآن لأنّ ذلك يحدّ من سعة العربية ويقوّض صرح معجمها[1].

د . التضاد:

لقد وردت ظاهرة الأضداد في القرآن بألفاظها المحتملة للوجهين الشيء وعكسه وهنا يبدأ الترجيح والتأويل بالموازنة السياقية بين المعنيين وذلك باستحضار الشاهد ومن أمثلته:

الظنّ : يعد الظنّ من الألفاظ المتضادة، فهو يحمل معنيين متناقضين، هما: الشك واليقين، وهو ما أثبته طائفةٌ من اللّغويين[2]، إلا أن هناك من أنكر ضدّية هذه اللفظة من المحدثين، بحجة أن معنى اللفظة يتغير بتغير السياق ؛ لذلك عدّوه من المشترك اللفظي، وأنه مأخوذ من افتراض عقيدي[3] والظنّ اسم ((لما يحصل عن أمارةٍ، ومتى قويت أدّت إلى العلمِ، ومتى ضعفت جداً لم يتجاوز حدّ التوهّم[4] والضعف والقوة يحددهما مطابقته للواقع أو عدم مطابقته، فإن كان مطابقاً للواقع وتحقق ذلك كان الظن يقيناً وعلماً، وإن كان غير مطابقٍ للواقع أصبح شكاً وتوهماً، وهذا ما تحدده القرائن الدلالية –السياقية والحالية والعقلية – في النص، وإذن فإن الذي يحدد معناها هو السياق نفسه، وإذا رجعنا إلى الذين ألّفوا في

---

[1]– الترادف في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق: مُحَمَّد نور الدين المنجد، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 2001، ص109 وما يليها.

[2]– معجم العين: الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: إبراهيم السامرائي ومهدي المخزومي، دار الهجرة، طهران، إيران، (د، ط)، (د، ت)، (151/8)، مادّة (ظ ن ن)

[3]– ينظر؛ التطور اللغوي التأريخي: إبراهيم السمرائي، معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة مصر "د.ط"، 1966 ص93

[4]– مفردات الراغب، مادة " ظ ن ن"، ص539

الأضداد نلاحظ أنهم يحددون قرائن السياق هي السبيل إلى تحديد معاني الكلمات المتضادة، وممّا اختلفوا فيه في هذا الباب قوله تعالى:

(كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَرَاقِي وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ وَظَنَّ أَنَّهُ الفِرَاقُ) (القيامة/26–28)، يرى أبو حاتم أنّ الظنّ هنا يقين[1] ويراه أبو حيان على بابه من الترجيح[2].

فالترجيح في مثل هذا الموضع لا يمكنه أن يعتمد على قرائن سياقية إلاّ إذا ورد نصّ مأثور عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في تفسير مثل هذه الآية، لأنّ من ظنّ الفراق يحتمل ذلك أوّلا على سبيل الشكّ فلا سبيل إلى معرفة موعد قبض روحه، وإن رجح له بالتأكيد إذا ما كان مرضه مؤذن بهلاكه لا محالة[3].

نتائج الدّراسة

اتّساع معاني القرآن لا يستوعبه إلاّ كثرة المعاني في اللّغة العربيّة بكمّ ألفاظها الكثيرة وإن لم تحط بها فعين العقل كليلة عن إدراك مراد الباري عزّ وجلّ، غير أنّ عدم الإحجام عن بذل الجهد في التّفسير والشّرح مكّن من التّجديد في علوم القرآن قاطبة بما فيها التّفسير، وتظهر بوادر التّجديد حينما لا يتجاهل المفسّرون كلام العرب قبل مجيء الإسلام وما يقال على نصّ القرآن يمكن أن ينسحب على نصّ الحديث الشّريف نفسه لكونه حوى الغريب وما لم تألفه العرب الّتي زامنت نزول الوحي وفصاحة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم .

تفسير القرآن إذا كان في كنف اللغة العربية وينهل من حياظها فهي حتما ستكفل له ثراء ما بعده ثراء بتنوع ألفاظها وزخم معانيها التي تمنح للمفسر بصيص أمل في التجديد ولو في جزئية محددة يختلف بها عن غيره فيضيف جهدا لم يسبق إليه بحكم اكتشاف معنى في المعجم اللغوي الذي اتّسع مداه في قديم تاريخ اللغة وكلما تمّ تحقيق كتاب من التّراث

---

[1]– ثلاثة كتب في الأضداد: الأصمعي والسجستاني ويليها في الأضداد غير، نشرها: أوغست هفنر، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، (د، ط)، (د، ت)، ص77.

[2] – البحر المحيط في التفسير: أبو حيان390/8

[3]– التضاد في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق: مُحَمَّد نور الدين المنجد، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1999، ص173.

العربي تبيّنت حقيقة جديدة في كلّ علم من علوم اللغة والتّفسير وغيرهما فسوف يكشف مستقبل الأيام حتما عن مخطوط في التفسير اللغوي عني صاحبه بالمعاني المستخرجة من الشعر العربي يزيد بهذا العمل توضيحا لقيمة اللّغة في التّفسير ودور الشّعر في تجلية المعاني القرآنية

لا مجال للتجديد في التفسير إذا أوصدت اللغة أبوابها ودثرت ألفاظها بوشاح معاني مستغلقة يتعذّر على العقل إدراكها فاللّغة العربية بمعجم ألفاظها غير المحصور بعدد أو كم قادرة على أن تتطور من حصيلة المفردات التي تتغير معانيها وتتطور فتمكّن المفسّر من اكتشاف ما انطمست حقيقته على من سبقوه كما أن اللّغة ليست توقيفية في مستويات الاستخدام أو سياقات المخاطبة؛ لهذا فهي متحررة من قيود عادة ما ينضبط بها غيرها ولا يعني هذا أنها تميّع معاني النص الذي تبحث في معانيه كالقرآن مثلا بل إنها تجعل المفسّر في حلّ مما هو توقيفي فأصل الوضع الشرعي الذي تتجاوب معه ألفاظ اللّغة ويمكن أن تنزاح عنه في نوعية المعاني دون أن تتجاوزه فالمجتهد في تيسير التفسير وتجديده لا محيد له عن المتغير اللّغوي بوصفه قابل لإعادة القراءة إذا ما توافرت شواهد جديدة من التراث العربي شعرا ونثرا وهذا ما لا ينضب معينه

مؤدى المعنى في القرآن ينضبط بقرائن كثيرة يأتي في مقدّمتها القرائن المنصوص عليها في لغة العرب ما لمتخالف فيه معنى شرعي معلوم بالضرورة فالمفسر يلجأ في مستهلّ تفسيره لأي لفظ قرآني إلى ما عنته العرب في أصل تواضعها حينما وظّفت هذا اللّفظ في كلامها لأوّل مرّة ثم يدلف إلى بقية القرائن الأخرى المقيدة لمقتضى الإحالة الدلالية في النص القرآني.

التفسير اللغوي للقرآن يمكن أن يكون مرحلة أوّليّة وأولويّة إذ ما تمّ توجيه معاني ألفاظ اللّغة بما يتوافق والدّلالة السياقية لمفردات القرآن وذلك بالتنائي عن التأويل المستهجن في عرف المجتهدين المشهود لهم بالرسوخ في العلم لأن مغاور التأويل لا يمكن أن تؤمن غوائله ومن هذا المنفذ ظهرت التّفاسير الشاذّة والتي اتخذت من اللغة مطيّة لتلبيس

الحقّ بالباطل فاللغة إذا احتواها التّأويل وانساقت في مفاوزه يقودهما عقل متشرّب بالأهواء يمكن للّغة أن تقلب ظهر المجنّ للحقيقة المنشودة وتتحول إلى معول هدم وتضليل

الشعر العربي المعتدّ بفصاحته وسمو أساليبه ليس سلطانا على المعاني القرآنية وإن وافقته في أصل الوضع والتنوّع البنية الاشتقاقية لأن لغة القرآن تختلف عنه في القصدية وليس موضوعهما واحد وإن تلبسا بثوب معجم ألفاظ لغة واحدة فما وافق فيها القرآن شعر العرب في جاهليتهم من ألفاظ متجانسة هو من قبيل الممثالة التعجيزية التي تحاكي ولا تطابق بل تساوق وتخالف في الآن نفسه وهذا هو مكمن الخصوصية والتفرّد في لغة القرآن الكريم لكونه نسج خيوط لغة نصوصه من ألفاظ العرب ثم أخرج للعقول المتدبرة نمطا مغايرا من التعبير ومعاني مستحدثة ملأت جوف اللفظ وجعلته أكثر إيحاء في موضعه الذي انتظم فيه.

ما يطعن في الشّعر العربي الّذي يستنجد به لتفسير آي الذكر الحكيم هو عدم تحقيق معظم نصوصه تحقيقا يعوّل عليه في مثل هذه الاستعانة الّتي تكتنفها خصوصيّة لا يمكنها من جهة أن تفارق لغة العرب ولا أن تجافيها من جهة أخرى، فلكي يتحقّق هذا التّقارب النّسبي لابدّ من السّعي حثيثا لإعادة تحقيق دواوين الشّعر العربي والتأكد من روايته حتّى وإن تمّ اقتفاء أثر المحدّثين في ضبط رواية الشّعر سندا ودراية.